

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا لون جديد من التفكير الفلسفي الحديث أقدمه لقراء اللغة العربية ،
ليعرفوا مقدار ما يمكن أن تقدمه التجارب العملية وكل من البحوث النفسية وعلوم
الحياة ووظائف الأعضاء من خدمات للبحوث الدينية ، على يد عالم قوى الملاحظة ،
دقيق التفكير ، يرجو الوصول إلى نتائج لا تقطعه عن الحياة العملية .

إنه جديد ، لأنه لم يتقيد بمبادئ المدارس الفكرية السابقة ، فلم يك صورة من
صور المدرسة العقلية ، ولا مظهراً لمدرسة الذوق والبديهة ، ولم يك تجريبياً قديماً . إنه
عقلي ووجداني معا ، أو هو نتيجة لحبك كل ما هو صالح من الجميع وصهره إلى
وحدة ، أصبحت بفضل James William تلك الآراء التي أقدمها اليوم إلى القراء .
ولقد كان أمامي طريقان لإبراز ذلك اللون من التفكير . أحدهما ، وقد يكون
أقلها مجهوداً ، وأوفرها فائدة عاجلة ، أن ألبس الثوب الذي أرتضيه ، فأقدمه كما
فهمة . بيد أن تصوير الفكرة كثيراً ما يكون مشرباً بروح المصور وملوناً بمقائده
وميوه نحو الحياة ، فلا يصور الفكرة أدق تمثيل أو كما يراها مصور آخر . لذلك
عدلت عن هذا الطريق ، وفضلت أن أنقل James بروحه ومعناه وبأسلوبه ، بل بلفظه
كذلك في كثير من الأحيان . وذلك بمجهود ، لو تعلمون ، عسير . ارتضيت ذلك النحو
تحقيقاً للأمانة العلمية ، وارتفاعاً بالقارئ الكريم عن أن يواجه بأحكام على James
قبل أن يتعرف بفلسفته . وبذلك وضعت بين يديه فرصة الحكم على تلك الفلسفة .

فإن شاء شاركني في الحكم الذي سأعرض له إن شاء الله في السفر الثاني ، وإن شاء خالفني ، إذا ما أوصلته بحوثه إلى غير ما ارتضيت .

ولما كان چمس من أخصب العلماء المحدثين عقلا ، وأغزرهم مادة ، وأكثرهم إنتاجا ، كان من العسير إبراز فلسفته مرة واحدة . فلم يكن أمامنا إلا أن نتخير ونقدم ما نراه أكثر نفعا ، وأحسن عرضا ، وأيسر فهما . ولقد سهل تلك المهمة أن چمس كان يصدف عن القواعد الاصطلاحية والعبارات الفنية ، وكان يلبس الفكرة العميقة ثوبا ساذجا ويعرضها عرضا سهلا ؛ فاستساغه الجمهور ، ولم يبتذله العالم المتعمق . ولم تكن فلسفته ، مع هذا ، إلا دروسا ومحاضرات لا يعز فصل بعضها عن بعض ، وإن كانت تهدف كلها نحو غرض واحد .

ولكن هل أقدم چمس الفيلسوف ، أم أحد علماء النفس ، أم أحد المشتغلين بعلوم الحياة ووظائف الأعضاء ، أم أحد رجال اللاهوت الذين وجدوا أدلة أقنعتهم بوجود الله ؟ تواجه تلك النواحي المتعددة الناظر إلى چمس ، ولكنه يجدها كلها ماثلة في تلك المجموعة من المحاضرات المسماة « بإرادة الاعتقاد » . وهذا هو ما حداني على تأخيرها ، لأن من يقرؤها لا يميز عن أن يتبين فيها نواحي چمس المتعددة .

ولقد رأيت أنه من الأجدر أن أقسم تلك المجموعة قسمين : أبداً منهما بما يبدو أسلس عبارة وأخف فهما ، وقد جمعت هذا القسم موضوع السفر الذي أقدمه اليوم إلى القراء ؛ وأثنى بالآخر لاحتياجه إلى مقدار من إعمال الفكر ، وسأرجئه إلى السفر الثاني الذي أرجو أن أتمكن قريبا من إصداره إن شاء الله . وسأترك كذلك العرض الفلسفي والنقد لبعض نظرياته إلى السفر الثاني ، حيث أرجو أن يكون هناك شيء من البسط لما يستدعي البسط منها .

والآن أقدم چمس تقدما سريعا وأعرضه عرضا موجزا ، ليعلم من لم يسبق له به علم من هو ذلك الرجل الذي أوليه هذه العناية .

عاش خمس في القرن التاسع عشر وأدرك شطرا من القرن العشرين (١٨٤٢ - ١٩١٠) ، فقد كان معاصراً لبعض رجال لا يزالون على قيد الحياة . وهو من أشهر مفكرى أمريكا على الإطلاق ، وأحد قادة الفكر الحديث في الفلسفة وعلم النفس ، بل من المجددين فيهما كذلك . وتدين له نظرية الذرائع Pragmatism بحياتها . تربي في بيئة دينية قوية . فقد كان أبوه رجلاً متديناً تلقى علومه في مدارس دينية ، وتأهل ليكون قسيساً . ولم يمنعه من المساهمة في أعمال الكنيسة إلا عجزه الجسمي . فلزم البيت ، وكوّن لأبنائه تلك البيئة الدينية التي نجد أثرها واضحاً فيهم جميعاً . ولكنه كان أكثر ظهوراً في ابنه وليم خمس لأنه لازم البيت في أثناء مرضه مدة طويلة كان يشغلها بالقراءة . ولقد اتصل ، من غير شك ، بكثير من كتب أبيه الدينية .

يمكن تقسيم حياة خمس إلى مرحلتين متميزتين : مرحلة التهيؤ والاستعداد ، بما يتبع ذلك من قلق نفسي واضطراب فكري وتردد ؛ ومرحلة الاستقرار والحيوية والإنتاج . شغلت المرحلة الأولى الجزء الأكبر من حياته ، إذ لم يفرغ من مرحلة التعليم الأكاديمي إلا وهو قريب من الثلاثين من عمره ، ولم يتغلب على اضطراباته النفسية ، ويشف من شكوكه وأوهامه إلا بعد أن جاوز الأربعين . حاول خمس في إبان حياته أن يتعلم الفنون اليدوية ، ولكنه ما لبث أن تركها ، لأنه لم يجدها منسجمة مع ميوله ورغباته ، والتحق بمدرسة لورانس Laurance العلمية . فدرس هناك الكيمياء وفق التشريح وما يتعلق بهما من موضوعات . ثم درس الطب في كلية هارفارد Harvard الطبية . ولكنه قطع الدراسة وصاحب لويس أجاسيز Louise Agassiz في رحلة اكتشافية إلى الأمازون Amazon . ولقد أفاد من تلك الصعبة كثيراً ، فهو « الشخص الذي عرفه الفرق الشاسع بين العلماء النظريين

والعلماء الذين يسبرون على هدى الحياة العملية الكاملة » . ولما أصابه المرض في أثناء الرحلة رجع إلى وطنه وعاود الدراسة . ولكنه مالبث أن قطعها ثانية وذهب إلى ألمانيا ١٨٦٧ - ١٨٦٨ حيث ظل ثمانية عشر شهراً ، كان في أثناءها شديد الاتصال بالفلسفة المعاصرة وبعلم النفس . وقد اتصل حينئذ بفلسفة رينوفييه Renouvier . ويحدثنا چمس أن اتصاله بتلك الفلسفة وتدبره فيها كان نقطة تحول في حياته ، وكان موجهاً له في حياته الفلسفية بل في حياته الشخصية كذلك .

ولكن المرض الذى أصابه في رحلته السابقة كان لا يزال يعاوده ، فكانت تأنيبه منه نوبات حادة عنيفة . وكان من جراء ذلك ضعيفاً ، متبرماً بالحياة ، متشائماً . وقد بلغ به التشاؤم حداً جعله يفكر في الانتحار . ولعل الذى باعد بينه وبين تنفيذ هذه الفكرة هو خارق من خوارق العادات أو شعور غامض بذلك العلاج الذى سيقدمه هو فيما بعد في بحثه عن « قيمة الحياة »^(١) ليعالج به مريد الانتحار نفسه ، فيحبب إليه الحياة ثانية ، ويجعله مستعداً لأن يواجه نصيبه من الكفاح بقلب قوى وعزيمة صادقة . ولما عاد إلى وطنه وتخرج من الجامعة بدرجة ماجستير في الطب عام ١٨٦٩ ، كان لا يزال مريضاً . لذلك لم يقدر أن يبدأ حياته العملية ، وظل حبس بيت والده حتى عام ١٨٧٢ . ولكن لم يمنعه المرض من الاتصال بالحياة الفكرية المعاصرة وغيرها . وهنا يحدثنا چمس أن الذى خفف عنه ألمه النفسى الشديد ، وأزال كثيراً من أوهامه ووساوسه هو قراءة بحث رينوفييه Renouvier في حرية الإرادة ، وقراره الجازم بمعد ذلك « أن أول عمل إيجابى يعمل المرء بالنسبة لحرية الإرادة هو أن يعتقد أنه حر الإرادة » . وكأن هذا القرار كان الجرعة الأولى من

(١) انظر الفصل الأخير من فصول هذا الكتاب .

الدواء الناجع ، فأظهرت شيئاً من حيوية جسم ، ووجهته توجيهاً جديداً . فرفض كلام من الجبر العلمى والميتافيزيقى الذى كان يمتدده نتيجة لدراساته العلمية والفلسفية وأصبحت بحوثه كلها ملونة بذلك اللون الشخصى .

ولما خفت آلامه قليلاً اختير مدرساً لعلم النفس فى كلية هارفارد Harvard ، وظل مدرساً لتلك المادة من ١٨٧٢ - ١٨٧٦ . وعلى الرغم من أنه كان مبرزاً فى علم النفس ، فقد كان متعب النفس ضيقها من دراسته ، ورغب فى أن يدرس علم وظائف الأعضاء من ناحيته السيكلوجية لا من ناحيته التشريحية . ولكن ألم يكن هذا خروجاً على المأثور فى علم النفس ؟ نعم كان كذلك ، واعتبر تحدياً للعقلية الدينية التى كانت تتحكم فى جامعات أمريكا كلها . ولم تخضع له تلك العقلية إلا بعد أن أبان لها أنه لا ضير على العقيدة من تلك الدراسة . وبذا أصبح علم النفس ، على يديه ، علماً يخضع للتجارب كمائر العلوم التجريبية بعد أن كان فلسفة نظرية .

ولم تفارقه آلامه النفسية ، ويزل عنه ما كان يعاوده من تهيجات عصبية حتى تزوج ؛ وكان الزواج كان آخر جرعة يتناولها ليتم بها الشفاء النفسى . فقد اختفت كل آلامه ، وامتلات نفسه أملاً فى الحياة ونشاطاً وحماًساً وقوة على العمل . وبذا تبدأ المرحلة الثانية من حياته : مرحلة الإنتاج والعمل . وهنا ظهر ما كانت تسكنه تلك النفس الشائرة المضطربة . فأخرج أولاً كتابه الضخم فى « مبادئ علم النفس » . وكان كتابه هذا ابتكاراً فى كثير من نواحي علم النفس ، ولا يزال عمدة فيه حتى يومنا هذا . ولقد أخضع فيه علم النفس لقواعد علم الحياة ، واعتبر التفكير من آلات الكفاح فى الحياة ، فهو وسيلة من وسائل الحياة العملية .

ولكن لم يكن جسم هذا فحسب ، فلا تزال نفسه تواقفة لموضوعات أكثر حيوية ، هيء لها بطبيعته . فلم يتابع بحوثه النفسية ، ولم يعن كل العناية بمعامل

التجارب التي أوجدها ، لأنه قد تبين له أنه عمل لا يمكن أن يحسنه . وما باله يقيّد نفسه بدائرة ضيقة داخل العمل مادام في مقدوره أن يكون طليقاً ، يلاحظ ويتدبر أنى شاء وكيف شاء ؟ فترك معامل التجارب ولم يستقص بحوثه النفسية لأنها « ضئيلة القيمة بالنسبة للبحوث الفلسفية والدينية » ؛ فهي ليست إلا مقدمة لها ، وهكذا استعملها جيمس . فكان شيئاً كان يناديه من قرارة نفسه ، ويدفعه دفماً عنيفاً إلى الناحية الدينية . فتوجه تلك الوجهة بميل طبيعي ورغبة نفسية . ولذا أنتج ، ولذا أحسن فيما أنتج . توجه الآن بكليته نحو البحوث المتعلقة بوجود الله وبصفاته ، والمتعلقة بخلود النفس وبحرية الإرادة وبالخير ، والمتعلقة بقيمة الحياة .

فلاحظ أولاً أن البراهين الذهنية النظرية لا يمكن أن تشفى غلتنا في هذه الناحية ، فلا بد أن يبحث عنها في المسائل التجريبية المتعلقة بها . فلنبحث عن الإله وصفاته في الأعمال الدينية وفي الشهور الديني . ولنبحث عن إمكان حياة النفس ثانية في التجارب الروحية . ولنبحث عن الجبر والاختيار في مظاهرها من الحركات وأفعال الاعتقاد . التجأ جيمس فعلاً إلى تلك النواحي المتعددة ، راجياً الوصول إلى نتيجة . فهو ، إذن ، كان باحثاً عن نتائج ، لا مبرهنات على رأى سابق . فوجد أن البحوث الروحية التي قامت بها جمعية البحوث النفسية في أمريكا وإنجلترا تؤدي إلى افتراض أن لنا قوة نفسية كامنة ، لا يعبر عنها الحس الظاهر ، ولا تأتينا معارفها عن طريق الحس الظاهر . ولكن ماهي ، من أين تأتينا معارفها ، وهل يكفي ذلك برهاناً على صحو بعد موت ؟ يرى جيمس أنه لا يكفي ، وأنه ليس لديه من معارف تجريبية يشرح بها طبيعة تلك النفس وطريق معرفتها .

وجد أن التجارب الدينية تؤيد القول بوجود الله ، ووجد أن له مكاناً طبيعياً في نفوسنا ، فلا تستريح النفس ولا يطمئن العقل حتى يصل إليه . ووجد كذلك أنه قادر على كل

شيء ، ويمكننا أن نتصل به ونلجأ إليه في الشدائد ، فينقذنا مما أقم بنا . آمن بأن لنا حرية واختياراً ، ولكن ليست الحرية إلا نوعاً من انفكاك بعض الأعمال أو الأشياء عن بعض . يعنى أن المستقبل ليس شيئاً واحداً ضرورياً قد حدده الماضي ، بل هو مبهم غامض ولا يمكن استنتاجه من الماضي . ويمكن القول بأن في العالم مصادقات ، أى أموراً ليس وجودها ضرورياً . وارتأى أن مثل هذه المصادقات في العالم لا يتنافى مع القول بوجود إله مدبر ؛ فتوجد المصادقات ، ولكن لا يشذ بها العالم عن الطريق العام الذى رسمه له الله .

ظهرت تلك الآراء كلها في محاضرات ألقى فيما يقرب من عشر سنين ١٨٩٣ - ١٩٠٢ . وجمعت كلها في أربعة كتب . وهى : « إرادة الاعتقاد ومقالات أخرى في الفلسفة العامة » ، وهو الكتاب الذى أقدمه للقراء في جزأين ؛ و « خلود الإنسان » ؛ و « أحاديث لدرسى علم النفس ولطلاب المثل العليا » ؛ و « تعدد التجارب الدينية » . وأخيراً ، وجهته هذه البحوث كلها وجهة أخرى . فحينما كان يحاضر في كاليفورنيا California عن النظريات الفلسفية وعن نتائجها العملية ، ذكر نظرية الذرائع Pragmatism ، التى اشتهر بها أو التى اشتهرت به بعد ، وبين أن مدلول الفكرة ، أى كان نوعها ، هو نتائجها العملية التى تؤدى إليها . وتلك النتائج العملية هى البرهان القاطع على صحة الفكرة . فليس صدق الفكرة هو انطباقها على شيء ذهنى أو آخر خارجى ، موجود قبل وجود الفكرة ؛ أو بعبارة أخرى ، إذا كانت الفكرة وسيلة والعمل أو النتيجة غاية ، فإن الغاية هى التى تبرر الوسيلة . ولقد انتفع بذلك القاعدة ، وطبقها على المسائل الدينية نفسها . « فالمعقيدة تبرهن على نفسها » ، يعنى أنها تؤدى قطعاً إلى عمل يحقق ما يعتقد المرء فيه خارجاً ؛ وهذه عبارة من عباراته التى ترددت في غير موضع من كتبه . ولقد وجد أن نظرية الذرائع لا تشهد

للقول بوحدة الوجود ، وأنها تدل على أنه ليس هناك من حاجة لافتراض « جوهر »
ليربط الأشياء بعضها ببعض ، إذ أن الروابط الظاهرة للأشياء هي حقائق كالأشياء
نفسها . فحاضر وكتب في نظرية الذرائع تحت عنوان « اسم جديد لنوع قديم من
التفكير » و « هل لشيء وجود ؟ » و « التجارب وما فيها من فاعلية »
و « الشيء وروابطه » . ثم جمعت هذه الفصول كلها في كتاب واحد تحت عنوان :
« مقالات في المذهب التجريبي المتطرف » .

وبذا أصبح جمس مركزاً لمدرسة فلسفية جديدة في العالم الناطق باللغة
الانكليزية . وكان من أقوى أنصاره في أمريكا ديوى Dewey ومدرسته، وفي إنجلترا
شِكلر Schiller . ولقد أراد أن يسلم ذلك الغرس الناشئ لمناصريه ليتعهدوه بما ينبغي
له ، وليستريح من مجهوده المضني . ولكنه لم يجد بداً من السفر إلى كلية مانشستر
Manchester في أكسفورد ، استجابة لدعوة جاءته ، لأنه ظنها تحدياً للمذهب
الجديد . فحاضر وكللت محاضراته بالنجاح ، ثم ظهرت في كتاب تحت عنوان « العالم
المتعدد » .

ولما عاد إلى وطنه واشتد به الضعف ، غادره ثانية للاستشفاء ، ولكن إذا حم
القضاء فلا مناص منه ، ولا يغني العلاج شيئاً . فرجع إلى وطنه ، وجاءته المنية في
بيته الربيعي في أغسطس عام ١٩١٠ .

ذلكم هو وليم جمس William James كما يصوره لنا التاريخ وكما تصوره كتبه .
فهو حقاً مجدد ، ولكن في تواضع . ولقد كره أن يقال أنه صاحب مذهب . إنه لم يفعل
إلا أن يضع « اسماً جديداً لنوع من التفكير القديم » . وحكمي الإجمالي عليه هو :
ولو أن فلسفته الميتافيزيقية لم تبلغ الغاية ، بل لم تبلغ شأواً يجاري به من سبقه من
الميتافيزيقيين - وهو لم يزعم لنفسه شيئاً من ذلك - فإن فلسفته الطبيعية ، التي تقر بأن

العالم مكون من مجموعة من الحوادث متجاورة ، وأن تغيراتها تغيرات اختيارية وليست ضرورية ، تجد كثيراً من المؤيدين في العصر الحاضر . ولا مرء في أنه كان من القلائل الذين برزوا في علم النفس ، وعملوا على إخراجهم من حضنة الفلسفة واستقلاله بنفسه .

ولقد كان للفرد الإنساني في فلسفته نصيب وافر . فهو المبدأ الذي ينبعث منه التاريخ ويجب أن تبدأ منه كل فلسفة ، هو القوة الظاهرة التي ترفع الجماعة وتخفضها ، وفعله هو الموجه للحياة . « فلقد وضع الله كلا من الحياة والموت والخير والشر بين يديه ، وقال له اختر الحياة دون الموت لتحيا أنت وذريتك » . وإن ما يخلصه من شدائده وشبهاته ليس بعيداً عنه « في السماء ولا وراء البحار ؛ ولكنه شديد القرب منه والاتصاف به ، بل أقرب إليه من حبل الوريد ، إنه قلبه » .

محمود عبد الله

جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ هـ
مايو سنة ١٩٤٦ م